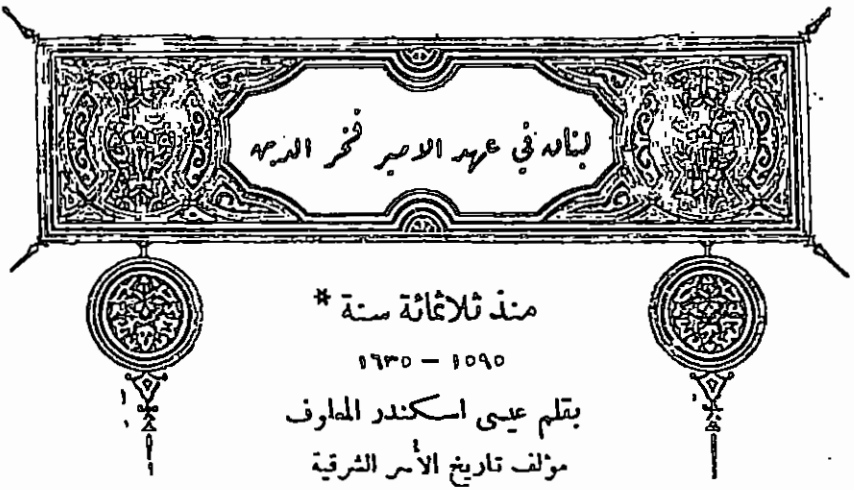

منذ ثلاثمائة سنة *

١٥٩٥ — ١٦٣٥

بقلم عيسى اسكندر المعلوف
مؤلف تاريخ الأسر الشرقية

١

توطئة

لماذا فتحت الحكومة العثمانية بلادنا ؟

اعقل المؤرخون سبب فتح السلطان سليم الاول العثماني لسورية ومصر، بعد محاربته للعجم واستظهاره على الشاه اسماعيل الصفوي، سلطانها الشيعي، لان سليماً كان متشدداً في التسنن فاراد فتح العجم للقضاء على الشيعة. وما استتب له الامر في ذلك الفتح حتى توقفت القوافل التي كانت تنقل له المؤن والذخائر الحربية من الاستانة. فاوجس خيفة وبحث عن السبب، فثبت له ان السلطان قانصوه الغوري، ملك سورية ومصر وصديق الشاه اسماعيل المذكور، قد ارسل بعض شيعيي سورية لقطع الطريق على قوافل السلطان الآتية من الاستانة الى العجم ونهبها. ونمي اليه ايضاً خبر المفاوضات الكثيرة التي دارت بين الغوري واسماعيل لتدبير مؤامرات ضد العثمانيين الذين كانوا يرمون الى خضد شوكة المماليك الشراكسة ونزع تأمين الحجاج الى مكة المكرمة من يدهم. فاوغر ذلك العمل صدر السلطان سليم، وزحف بجيوشه لفتح سورية ومصر وانتزاعهما من يد الشراكسة. فكانت

---

* محاضرة ألقيت في نادي اخوية القديس يوسف المارونية في بيروت

الموقعة الكبرى بينهما في مرج دابق ، شمالي حلب ، فقُتل الغوري ، وتشتّت عساكره . ودخل سليم بلادنا فاتحاً ظافراً كما أرّخ ذلك كثير من الكتاب ، ولاسيما ابن زُنبل المصري فانه وصف هذا الفتح الذي شاهده عياناً . فوصل سليم مدينة دمشق في ١٢ تشرين الاول سنة ١٥١٦ ، وصارت تحت حكم العثمانيين .

فاستقدم السلطان العثماني امراء لبنان الى دمشق . فمثل بين يديه المماليون له منهم ، وهم الامير فخرالدين المعني الاول ، جدّ موضوع كلامنا الآن ، والامير جمال الدين اليمني ، والامير عساف التركماني . وتخلّف عن الحضور الذين مالأوا الغوري مثل الامراء آل سيفا ، وامراء الغرب التنوخيين ، وغيرهم . فدعا مقدّمهم الامير المعني للسلطان دعاء حميداً سُرّ به ، فاقرّ كلًّا منهم على مقاطعته . فجعل الامير المعني حاكماً على بلاد الشوف ومقدماً عليهم ، ولقبه باسم «سلطان البرين» . ونصّب الامير جمال الدين على الغرب . والامير عساقاً على كسروان وبلاد جبيل . وخلع عليهم . وضرب جزية خفيفة على بلادهم ، ذُكر منها ما اصاب مقاطعة كسروان ، وهو سبعمائة سلطاني ، والسلطاني ثلثا الغرش الاسدي . وهذا الغرش الاسدي نحو اربعة فرنكات من نقودنا ، فتكون تلك الجزية على بلاد كسروان نحو اربعة آلاف ومائتي غرش ذهباً .

فبقي لبنان اقطاعياً كعهده السابق ، يتولى شؤون كل مقاطعة منه امراء او مقدمون او مشايخ من طبقات اعيانه الثلاث . ولهم قوانين وعادات في الحكم والقضاء والمقابلات والتحيات والمكاتبات وغيرها رأيت فيها مؤلفات مخطوطة انتخبت بعضها في كتابي « دواني القطوف » المطبوع ، الصفحة ٢٤٨

ظلّت هذه القوانين مرعية الى آخر الحكم الاقطاعي المنتهي في النصف الاول من القرن التاسع عشر الماضي . وكان من اهم حكامه الامراء التنوخيون المعروفون بالبحتريين ، والارسلانيون ، والمعنيون ، والشهابيون ، واللمعيون ، والحرافشة ، والمقدّمون والمشايخ على اختلاف تسمياتهم وطبقاتهم وطوائفهم من نصارى ومسلمين ودروز ؛ وتواريخنا ملأى باخبارهم .

واهم من كان من هؤلاء الاقطاعيين في القرن السابع عشر ، موضوع كلامنا

الآن ، الامراء المعنيون في الشوف ، والسافيون في كسروان ، والسيفيون في طوباس ، والشهابيون في وادي التيم ، والحرفوشيون في بلاد بعلبك والبقاع ، والمقدمون والمشايخ المعروفون عندنا الآن .

وكانت بينهم منازعات ومخاصمات ادّت الى اضطراب البلاد ، فقامت وقعدت بسكانها فضلاً عما مُنيت به من وجود العساكر الانكشارية والقبيقولية في الولايات العثمانية ، ولاسيما في دمشق ، وما كان ينشب بينهم من الوقائع الدامية ويتجدد من العداء الذي استفحل امره فقضى اخيراً بكف يد بعض الحكّام ، وقتل تلك العساكر . فاستراحت البلاد منهم في القرن الماضي . ولكن اقلقتها الحروب الاهلية والتحزبات السياسية التي كان قوادها بعض الحكام الوطنيين .

من هم الامراء المعنيون

كان لنزار بن معدّ بن عدنان ، المنتسبة اليه العرب المستعربة من سلالة اسماعيل ابن ابرهيم الخليل ، اربعة بنين احدهم ربيعة الفرس الذي سمّاه الكميت في شعره « ربّ الجواد » . فاشتهر من بني ربيعة الامير ايوب الاول الذي اعقب احد عشر ولداً كانوا كلهم من الفرسان المدرّبين ، فذاعت شهرتهم حتى حسدهم سادات ربيعة في بلادهم ، شبه جزيرة العرب ، وناوؤوهم . فهجروها الى العراق وتديّروا الجزيرة الفراتية ، وتناسلوا وتكاثروا ونشأت منهم افخاذ وبطون لا محل لتفصيلها ، فعُرفوا اولاً بالايوبيين نسبة الى رأس قبيلتهم المذكور . حتى اذا نبغ منهم الامير ايوب الثاني هجر الجزيرة بقومه ، وجاء الجبل الاعلى من الديار الحلبية فخيّم فيه . واشتهر ببسالته ومكانته مثل اسلافه ، فنشأ ولده معن المنتسب اليه المعنيون هؤلاء مقتفياً آثاره وارثاً صفاته وشجاعته . فتزوج بابنة الامير نعمان التنوخي ، تزيل معرّة النعمان هو وقومه ، فحالفهم واشتد مراسهم وافق صيتهم ، حتى انتدب غازي امير الترك معناً هذا لمنازلة الملك بلدوين الفرنجي الصليبي سنة ١١١٩ م في الجبل الاقرع ، قرب انطاكية . ففشل الامير معن ، وتمزّق شمل جنوده . فكبر ذلك عليه والتجأ بعد سنة الى

طقتكين ، صاحب دمشق الذي كان يحارب الافرنج المذكورين في ضواحي حلب ، فارسله بعشيرته واحلافه الى سهل سورية المجوّفة ، المعروفة الآن ببلاد بعلبك والبقاع . ورافقه الامير منذر ابن عمه نعمان التنوخي ، فخيّموا في ذلك السهل الفسيح في جهة البقاع . وحدث لهم مع الجنادلة ، حكام قلعة جندل في تلك النواحي ، مواقع مشهورة .

وعلى اثر ذلك امر طقتكين المار ذكره الامير معناً وقومه ان يتوقّاوا مضايق لبنان وينزلوا في مشارفه البحرية لشنّ الغارات على الافرنج في الثغور الساحلية . فامتثل الامر ونزل على احلافه وانسبائه الامراء التنوخيين . فاكرموا وفادته ، وانزلوه على الرحب والسعة في صحراء بعقلين ، حيث هجر بعد مدة الخيام هو وقومه واتخذوا البيوت الحجرية مساكن لهم . فكان ذلك بدء وجود المعنيين في بلادنا . وسمي بهم « جبل الشوف » او « جبل الدروز » فقيل له « شوف ابن معن » ، وسمي حاكمه « امير الدروز » .

اما ما ذهب اليه بعض المؤرخين ، ولاسيما الاب اوجين روجه الفرنسيسكاني ، معاصر المعني ، في كتابه « الارض المقدسة » من انه من سلالة الامير Dreux الصليبي ، ومن نقل عنه هذا الرأي كباسيلي الروسي وغيره ، فغير ثبت . والله اعلم .

اتصل المعنيون العربيو المحتد بالامراء الشهابيين القرشيين ، الذين جاؤوا من حوران الى وادي التيم سنة ١١٧٣ م ، بزمن الملك العادل نور الدين محمود زنكي ، مربّي السلطان الشهير صلاح الدين الايوبي ، الذي كان حاكم الشام ومصر ، فالقوا رحالهم في جوار لبنان ، وصاهروا المعنيين وحالفوهم . واتفقوا معاً على محاربة الصليبيين وحماية الثغور من غزواتهم ، كما ذكرت التواريخ . ثم خلفوهم في حكم لبنان بعد انقراض ذكور المعنيين بوراثة البنات .

فتسلسلت الاسرة المعنية في لبنان وعلى رأسها الامير فخر الدين الاول بزمن الفتح العثماني . فقبضت على زمام الاحكام مدة طويلة . وخلف فخر الدين ولده الامير قرقماس ، الذي مات قهراً سنة ١٥٨٤ لتحامل آل سيفا عليه باتهامه بارسال رجاله لنهب خزينة السلطان العثماني في عكار . وكان لقرقماس هذا ولدان صغيران وهما فخر الدين الثاني ويونس . ففخر الدين الثاني هو موضوع كلامنا الآن ،

وقد رزق خمسة ذكور قُتلوا ولم يبقَ منهم حياً الا الامير حسين في الاستانة الذي مات بدون عقب فانقرضت سلالتهم به . وكان آخر حاكم منهم الامير احمد المعني المتوفى سنة ١٦٩٧م فانتهى به حكمهم .

الاحزاب السياسية في البلاد على عهدهم

اشتدّ العداء السياسي بين قبائل العرب التي دخلت سورية ولبنان من شبه جزيرة العرب او بلاد حوران وما اليها ، او من شمالي سورية والعراق ، لانتمائهم الى غرضين عظيمين متعاديين هما « القيسي » و« اليمني » . فضلاً عما كان بينهم من التحاسد والتنابذ والتنافس ، فبنو ربيعة في جزيرة العراق كانوا معادين لبني مضر في الحجاز . فلما استتب الامر للعرب المتنصرة والمسلمة التي دخلت بلادنا في تلك الايام وقبلها وبعدها ، نشروا الحزبية القيسية واليمنية ، او المضرية واليمنية بينهم . فالتف حول كل حزب سكان البلاد القدماء على اختلاف مذاهبهم واجناسهم ومواطنهم . وقد ذكرت التواريخ وقائعهم ولكنني لم اقف على تاريخ خاصّ لهم الّا ما عرفتُ اسمه ولم اره كتاريخ قيس ويمن لاحد الاندلسيين ، ومثله لابن طولون الدمشقي ، وذلك بعد بحثي الطويل . فافردت لهذا التحزب كتاباً باسم «وقائع قيس ويمن» فصّلتُ فيه عاداتهم ورواياتهم وحروبهم ونخوتهم « اي تعارفهم » وما يتعلق بشؤونهم . ومما يحسن ذكره الآن ان محلة برج القلفول ، في الخاء الخندق الضيق في بيروت ، كانت ساحة لمعاركهم .

وكان اليمنيون كثيرين في لبنان ، والحكومة العثمانية تعاضدهم ولامرائهم الغلبة على غيرهم ، ولاسيما المعنيون الذين اضطُرّوا الى الانحياز عن اليمنية ومناصرة القيسية بزمن الامير فخر الدين الاول لنزغة وقعت بينه وبين الامير جمال الدين الارسلاني اليمني امير الغرب . فصار المعنيون منذ ذلك الحين رؤساء الحزب القيسي ، واورثوا هذا الغرض الشهابيين خلفاءهم الذين استظهروا على اليمنيين في موقعة عين داره ، فوق صوفر ، سنة ١٧١١ ، وكان آخر العهد بهم .

فكانت هذه الحزبية من جملة الذرائع التي اوقعت الخصام بين حكام البلاد ورجال الحكومة ، ولاسيما بين المعنيين وآل سيفا . فقتل من جرّائها الامير

قرقماس ، والد الامير فخر الدين موضوع كلامنا ، وترك ولدين قاصرين خشيت عليهما والدتهما السيدة نسب التنوخية من اليمنيين، وكان اكبرهما فخرالدين ابن اثنتي عشرة سنة ، فاشارت على مدبر والدهما ومربيهما الحاج كيوان من دير القمر ،من آل نعمه ضو الموارنة فيها ، ان يجنبهما في محلّ بعيد عن عيون اليمنيين الموالين لرجال الحكومة العثمانية ، فسار الحاج كيوان بهما الى شمالي لبنان ، قاصداً جهات عكار والحصن حيث هناك كثير من متنصرة العرب الذين يحرصون على ولدي مخدومه المتوفى . فمرّ بطريقه على دكان تحت قرية بلّونة في كسروان بطريق البحر ، واجتمع هناك بصديقه ابي صقر ابرهيم ابن الشدياق سركيس الحاجي المعروف بالخازن القيسي الحوراني الاصل . وبعد مباحثات كثيرة وقف على سرّه فاقنعه ابو صقر ان يسلّمه الولدين ، وهو يتعهد له بالأيمان المغلّظة ان يحميهما من تعدّي اليمنيين ، فقال له : ان هذا المحلّ تطرقه المارّة فيخشى عليهما من بثّ العيون والارصاد . فحقّق له ان يشتري محلًا في بلّونة المرتفعة عن الطريق كثيراً ، والتي لا يمرّ فيها لاحد من جهة اخرى، فيجعله مخبأً لهما ، وهكذا كان . فبعد ان وضع ابو صقر الولدين بحارته في بلّونه بين اولاده ، وأمّن الحاج كيوان مخبأهما ، عاد الى السيدة نسب والدتهما وشقيقها الامير سيف الدين التنوخي خالهما ، واخبرهما بما جرى وكيف انهما في حرز حريز تحتاطهما عناية ابي صقر واسرته الكبيرة . فلا تتسرّب اليهما يد اثيمة . وقال في الختام ان قربهما افضل من بعدهما عنّا جميعاً ، فنتفقدهما في كل فرصة ونهتم شؤونهما . فاطمأن بال الوالدة والخال وترعرع الولدان في ذلك المخبأ ، وهما مع اولاد ابي صقر اسرة واحدة ، الى ان مضت مدة ست سنوات فصار عمر الامير فخر الدين ثماني عشرة سنة بلغ فيها اشدّه . فارجعهما الحاج كيوان الى والدتهما وخالهما ، فسرّا بهما وشكرا ابا صقر وما بذله من العناية بهما ، ووعداه بالمكافأة عند استعادة الحكم لاكبرهما بسعي والدته وخاله . فزوّجاه بابنة الامير جمال الدين الارسلاني اليمني لاستمالة اليمنيين اليه مع حلفائهم . ومن هذه الزوجة رزق فخر الدين ابنه الامير علياً الذي قتل في موقعة سنة ١٦٣٤

وكان الامراء آل سيفا الاكراد ، حكام مقاطعة طرابلس الشام ، معادين

للمعنيين كما سبق ، مع ان المعنيين نصروهم في قتالهم لآل شهاب ، سكان عرقا وحكام طرابلس ، سنة١٥٢٨ ، لنزع الحكم من يدهم واعطائه للسيفيين. واما الامراء العساقيون الاكراد ، حكام كسروان ، فكانوا موالين للمعنيين. وكذلك الامراء الشهابيون حكام وادي التيم . والامراء الحرفوشيون حكام بعلبك والبقاع. فسعى الامير فخر الدين بدهائه وحسن رويته ان يعقد مصاهرة بينه وبين هؤلاء الحكام جميعهم فتوفق الى ذلك وكان مرشده الامين في ادارة شؤونه والدته وخاله.

وسنة ١٥٩٥ استتب الحكم لفخر الدين وانفسح له مجال العمل ، فاتخذ يوالي المسيحيين ذاكراً جميلهم لان مدبر والده ومدبره كانا منهم ، وحافظ حياته من اعدائه احدهم ، ورأى ممن قربه اليه منهم اخلاصاً كبيراً وولاء حقيقياً ، فولاهم اعمالاً كثيرة وكتب الى ابي صقر « الاخ العزيز » ، واتخذه مدبراً لخزينته ومرجعاً لاعماله وهو واولاده . فعرفوا بالمشايخ الخازنيين وكان زعيمهم اذ ذاك ابا صقر ابرهيم وشقيقه ابا صافي رياح . فاعتمد على نخبة من هؤلاء ، واتخذهم سفراء لاعماله ، وادخل الحاج كيوان في وجاق الانكشارية في دمشق ليطلع على اسرار رجال الحكومة الذين بدأوا يقفون له بالمرصاد خائفين من مناداته بالاستقلال . فساعد فخر الدين بكل دهائه وفطنته. فاخذ الامير يتبسط في حكمه مع الايام ويزداد حنكة بالاختبار والاحتكاك . فكان له من آراء خاله ووالدته ومدبريه ومربيه مقام عظيم . وكان زعيم القيسين واليه مرجع اعمالهم

من هو الامير فخر الدين المعني

ولد الامير فخر الدين ابن الامير قرقماس ابن الامير فخر الدين الاول في قصبة بعقلين (من شوف لبنان) سنة ١٥٧٢ . ووالدته الاميرة نسب التنوخية، وخاله الامير سيف الدين التنوخي ، ومدبر والده ومدبره الحاج كيوان نعمه ، ومربيه ابو صقر الخازن المقرب منه والملازم بيته . تولى الحكم سنة ١٥٩٥ ، وبدأ في توسيع نطاق ملكه وضمّ ما حول لبنان اليه بأخذ مدن الثغور البحرية

كبيروت وطرابلس وصيدا وصور ، وبعض المدن الداخلية كدمشق وحمص وحماه وبعلبك ، والمدن الفلسطينية وما يليها كالقدس وعجلون وصفد ، ليتصل بامراء العرب ويتخذهم اعواناً له بمحاربة الدولة العثمانية التي سببت موت والده قهراً ، وكان رجالها يناصبونه العداء ، فيخضد شوكتهم ولاسيما احمد باشا الحافظ والامراء آل سيفا . فارسل من يثق به الى الاستانة ، وهناك انتخب له من يكون مفوضاً لدى الباب العالي وطلب امارات لاولاده ، ليقوي بهم امارته الكبرى ، ويكثر من اعوانه ومريديه .

فانتهز فرصة اشتغال الدولة العثمانية بمحاربة الفرس والمجر ، بزمن السلطان احمد الاول من سنة ١٦٠٣-١٦١٧ مسيحية ، ومدّ رواق سلطته على كسروان والثغور البحرية واقاليم عجلون وبانياس وصفد . وسعى بترقية مدينتي بيروت وصيدا وجعلهما قاعدتي ملكه على شاطئ البحر غير مضيّع وقتاً يستثمر فيه فائدة ، شأن رجال العمل .

فعقد معاهدات مع تجّار توسكانة وما اليها من تلك الثغور الافرنجية التابعة الآن لايطالية وكانت ذات مدنية راقية وغنى وافر . وعزز اسباب العمران الثلاثة : الزراعة ، والصناعة ، والتجارة ، تعزيزه للسبب الرابع وهو الامارة . فشيد القلاع والابنية ورمّم ما تهدم منها ، ووفر ثروته وتبسط في ملكه ، ونزعت نفسه الى الاستقلال عالماً ان اركان الاستقلال ثلاثة : العلم ، والقوة ، والمال . وكاتب بواسطة التجار التوسكانيين (بعد ان مهّد لهم اسباب الراحة والدخول في بلاده) امراءهم آل مديسيس (الطبيب) حكامهم ، فعقد معاهدة مع الغراندوق فرديننـدو الاول سنة ١٦٠٨ ، ثم مع خلفه قزما الثاني سنة ١٦٠٩ ، وخلفه فرديننـدو الثاني سنة ١٦٢٦ وكان من شروطها الاتفاق التجاري والتعاهد على الدفاع والهجوم عند الحاجة ، اي انها معاهدات تجارية سياسية اقتصادية . واتخذ جزائه العظيمة منفذة لكل هذه الاعمال ، واصلى نيران المواقع فحمي وطيس الحرب بينه وبين مجاوريه والحكام الذين ناوؤوه . ومع اضطراب حبل الامن رتعت البلاد في بحبوحة من العيش ، ونال المسيحيون وغيرهم من الطوائف كل راحة وهناء ، واخلصوا جميعهم الخدمة له الّا من خاتل وخادع بسعاية بعض

رجال الحكومة الذين عادوهُ.

فنظّم الجنود تنظيماً مرتباً ودرّبهم على القتال ووزّعهم في القلاع والحصون والمخافر والثكنات التي شيدها او رممها حتى بلغ عددهم اربعين الفاً او اكثر. وكان بينهم السكبان (نوع من جنده الخاص) الذين فرقهم في الحصون المنيعة فبلغ عددهم، مع عسكره الوطني، نحو مائة الف وهم من المتاربة والمسيحيين وبقية الطوائف ومعظمهم من الرجّالة. وحصّن المدن والثغور وشارف كل ذلك بنفسه ولاسيما في اوقات الحصار والمواقع. ومالأ علي باشا جنبلاط (جان بولاد) والي حلب وما اليها. ونزعت نفسه الى الضرب على ايدي الطائشين. فاوجست الدولة خيفة منه ومن استقلاله باحكامه، وذلك باصغائها الى الوشاة الكثيرين، وبينهم يوسف باشا سيفا. فوقف للمعني بالمرصاد كبار رجال الدولة مثل نصوح باشا واحمد حافظ باشا وبثّا عليه العيون وانتهزا الفرصة لايغار صدر الدولة عليه بما يجريه من الاعمال التي تشهد بوشاياتهم. فعلم المعني ذلك منهما واخذ يناوئهما وهما يشتدّان بالعداوة ضدّه وينصبان له الاشراك لاقتناصه والمكايد لخضد شوكته، فحدثت بينهما وبينه مواقع كثيرة ومعارك شديدة استفحل امرها. فوقع المعني بعدها بين عدوّين الدَّين: الحافظ في دمشق وكان ظالماً فتّاكاً معادياً له كل العداء، ويوسف باشا سيفا في طرابلس وهو شديد النكاية بالمعني. وقد التفّ حولهما كثير من الامراء والقبائل والاعيان الذين كانوا يتظاهرون للمعني بالولاء ثم يقلبون له ظهر المجنّ بعد قليل غير ثابتين على عهدهم له. ومن ذلك القبيل التجار البنادقة الذين كانوا ينافسون التجار التوسكانيين معاهدي المعني، وعشران البرّ المعروفون بعصبيتهم الشديدة. فكان الامير ضدّهم فاغتابوه.

ومع ما اتخذه من الذرائع الفعّالة لحسن سياسته ومعاضدة اصحابه له من رجال الحكومة مثل مراد باشا صديقه الحازم وغيره، كانت الايام تعاكسه. فتوفي صديقه مراد باشا هذا سنة ١٦١١، وأبعد الآخرون عن الاستانة لاعمال اسندت اليهم خارجها، فحبطت مساعيه وعيل صبره.

يأس المعني وتركه البلاد الى توسكانة

ولمَّا استفحل العداء بينه وبين رجال الحكومة ، وخذله انصاره في البلاد رغماً عن معالجته كل ذلك بحنكة سياسية وخبرة ادارية وسعة صدر وصحة عزيمة ، نفد صبره من مخاتلة الناس وتملقهم وتدليسهم وريائهم ، فعقد العزم على هجر البلاد ببعض عياله وخاصته والذهاب بنفسه الى توسكانة واستصراخ غراندوقها لمعونته ليستطيع الوقوف في وجه هذه المعاكسات الكثيرة ، ويتوفق الى استقلال البلاد ورفع منارها والظفر باعدائه وكبت حسَّاده .

فاقلع من ميناء صيدا بعياله وبعض رجاله في ١٥ ايلول سنة ١٦١٢ بسفينة فلمنكية (هولاندية) مسندًا حكم البلاد بغيابه الى شقيقه الامير يونس ، وولده الامير علي الذي كان كوالده في الدهاء والبسالة . واوصاهما بنقل كرسي الحكم من بعقلين الى دير القمر فنقلاه اليها سنة ١٦١٥ . وذلك ليتمكن من موالاة المسيحيين بوجوده بينهم لانه لم يجد اخلاصاً له الا منهم .

وبعد سفر ثلاثة وخمسين يوماً في البحر من صيدا رست السفينة في ميناء ليكورنو فقابله رجال اميرها الفرندوق قزما الثاني الطيب بكل حفاوة ، واستقدمه الفرندوق اليه الى عاصمته فلورنسة واحسن مثواه . وترحب به كثير من التجار والاعيان الذين عرفهم او كاتبهم وأنزل في قصر الامبروجيانا (الذي هو الآن مدرسة للرهبان الحلبيين الموارنة) على الرحب والسعة . فاخذ ، بعد ان استراح من السفر ، يجتمع بالفرندوق ورجاله ساعياً بتجهيز حملة الى الشرق لتخليص الاراضي المقدسة : فتفاوض الفرندوق قداسة البابا وملوك اوربة ولاسيما ملك اسبانية الذي استقدم الامير اليه . فتداولت اوربة امر هذه الحملة وذاعت اخبارها بينهم وصار كل يريد ان يكون المجاهد اليها فسبقهم الفرندوق بارسال بعثة سنة ١٦١٤ ، وفيها المهندسون ورجال الفنون ، لارتياد ثغور لبنان وسورية وفلسطين ورسم مواقعها الحربية وقلاعها واختيار شؤون تجارتها وحاصلاتها ، ولدرس كل ما من شأنه ان يوسع نطاق التجارة الى غير ذلك مما حققوه واختبروه . فعادوا بمعلوماتهم الحربية والاقتصادية وطرحوها بين ايدي

الفرندوق فمال الى موالاة المني واستمار بلاده الخصيبة ، فعقد معه معاهدة وطدت آمال المني بنيل المساعدة . فطاف مدن بيزا وفلورنسة وتوسكانة وليكورنو وما اليها ، وذهب الى صقلية (سيسيلية) ونابلي ومسينا من اعمال اسبانية ، وعاج بجزيرة مالطة التي كانت آنئذ بيد فرسان القديس يوحنا . وذلك عند انسلاله الى بلادنا خفية من جهة الدامور لتجسُّس اخبارها والوقوف على سياستها وعودته الى اوربة بسرعة .

فدرس مدنية تلك البلدان الفنية الراقية ، ووقف على اهم الشؤون الاقتصادية والسياسية والادارية ، فصرف خمس سنوات في الانتباه والمراقبة والاقتباس وهو مع تغربه يشارف شؤون ولايته من بعيد مرسلاً البعوث لاستكشاف اخبارها واستطلاع طلع رعيته فيها متنسماً انباء الاتراك ومستعلماً عن اعدائه وما آل اليه امرهم ، فعرف ان نصوح باشا توفي ، وحافظ باشا عُزل عن دمشق وخلفه فيها محمود باشا . وعلم ما دار بين هذا الوزير ووالدة الامير السيدة نسب بالاستئذان منه لارجاع ولدها فخر الدين الى بلاده . فقبل ذلك على شرط ان يهدم حصني الشقيف وبانياس المنيعين . فوصلته رسائل والدته التي تلحف عليه بالرجوع الى حضنها وتخبره بما جرى ، فتأهب للسفر .

(لها بقية)